

## نعم لجلد الذات

هل خَطَرَ في بالنا، نحن «المثقفين»، أن نشاهد أنفسنا على التلفزيون؟

أتمنى أن نَفعل ذلك، لأن أكثرنا - حينها - سيظم رأسه ويحلف بالله العظيم أن لا يعيدها.

يسألوننا في كل شيء، ونحن نعرف كل شيء. وحتى إذا لم نعرف، فإننا نتملص من الإجابة بأن نقول: «سجيبك عن سؤالك، ولكن أولاً دعنا نوضح ما يلي...» وبعد الإيضاح، نسكت.

أولاً يسألوننا عن موقفنا من موضوع «شائك» لا نريد أن نعطي رأياً واضحاً فيه لكي لا نُغضب فلاناً أو علاناً، فنقطب حاجبينا، ونلجم الغبار عن الطاولة بيدنا، ونطرح رأيين متناقضين، ثم نحاول التوليف بينهما مستخدمين الديالكتيك... والتكتيك.

تيك، تيك!

ولا ننسى أحياناً أن نزم شفاهنا لإضفاء طابع الجدية على ما سنقول، حتى لنبدو - واعدروني على ما سأفوه به في مجلة يُفترض أن تكون رصينة - كمن فسّت القطعة في أنفه.

وإذا نرفزنا، وتصاعد البخار القومي أو الديني أو «الديموقراطي» إلى رؤوسنا، تتأثر البصاق، وتطيرت اليدان في الهواء، قبل أن نسكن ونعيد ضبط الكرافات أو تبكيل الجاكت أو تمليس الشعر.

وإذا أردنا أن نهجم السلطة في سورية مثلاً، سمينها «الراعي الإقليمي».

وإذا حُشرنا في وطنيتنا وثوريتنا، صبنا كل غضبنا على شارون و«النظام» الإسرائيلي، وناشدنا بوش أن يرفض الانصياع إليه... وكان بوش أقل إجرماً، أو كان «النظام» الإسرائيلي (بيريز؟ باراك؟ شامير؟) أكثر رافةً من شارون.

وإذا أردنا أن نبرر تخلينا عن الأطروحات «القديمة» (الكفاح المسلح، الوحدة، الاشتراكية، العدالة الاجتماعية...)، أبرزنا تقارير التنمية «البشرية» لنؤكد أن «الأولوية» الآن هي لإصلاح أوضاعنا «الداخلية».

إية، إية!

ثم نهمر على المشاهدين بالأرقام والإحصائيات والنسب التي تبين تخلفنا عن «الركب العالمي»، وتُظهر أن المشكلة هي في عقلنا الغيبي والخرافي، لا في المحتل الخارجي والمستبد الداخلي.

لقد لبسنا ثوب الخبراء، ونزعنا عن أنفسنا ثوب المثقفين.

والثقف الحقيقي هو الهاوي، كما كان يقول عزيزنا إدوارد. الهاوي من الهواية... ومن الهوى أيضاً. إنه شخص لا يتردد في إعلان تجهله بما لا يعرفه، ولا يتوانى عن السخرية من نفسه إذا اقتضى الأمر، ولا يخجل بعفويته الجارحة حين تتكلم الأكاذيب من حوله.

إن المثقف الحقيقي هو موقف قبل أن يكون معلوماً أو رقماً... وبخاصة حين تصبح المعلومات أو الأرقام حمالةً للشيء ونقيضه معاً، أو مبرراً للاستسلام أمام العدو القومي بحجة «الإصلاح الداخلي».

نعم، علينا أن نكره أنفسنا حين نصير غيرنا، أي حين نصير غير ما يُفترض بنا أن نكون عليه: «صوتاً يجهر بالحقيقة في وجه القوة» كما يقول تشومسكي.

إن هذه الكلمات دعوة إلى جلد الذات... كي نعود إليها.

كفانا «خبراء».